كان الظلام حوله كثيفا جدا . وحين اشعل عودا من الثقاب وادنى منه سيجارته المبرومه اخفى للحظات هذا الظلام الكثيف من حوله وبدت للحظات ايضا شواهد القبور المحيطة به ملقية بظلالها المرتجفة الى الوراء . ومرة اخرى ساد الظلام جوانب المكان . ولم يبق هناك سوى قرص صغير احمر يشتد توهجه كلما جذب نفسا عميقا من سيجارته .

وفي اللحظات التي كان يشتد فيها توهج القرص الاحمر كانت تبدو خلال الظلام شفتان يابستان سودوان تنطبقان على اطراف السيجارة يطل فوقها شارب مهمل وخدان تملاهما تجاعيد صلبة ، وعينان تطل منهما نظرات مثقلة بالتفكير . اما باقي الرأس فلم يكن يظهر منه سوى شوارب « اللاسة » التي تلتف حوله وتتدلى الى حيث تلامس انفه الطويل وأذنيه اللتين يختفي نصفهما تماما تحت اللاسة ...

كانت الليلة من ليالي ديسمبر الباردة والرياح التي تعصف احيانا تهز الاشجار القليلة المتفرقة في انحاء المقابر فتحدث صوتا تنقبض له النفس في هذا المكان دون غيره .. .غير ان « عبد العال » كان قد بدأ يألف هذا الصوت بل يألف المكان كله . وزايله ذلك الخوف الداخلي الذي صاحبه منذ بدأ سهرته لحراسة المقبرة الجديدة التي دفن فيها الليلة الشيخ « عوض » ونزل ضيفا على الاخرة .

لقد جلس عبد العال يفكر بأنه هو الاخر سيقضي ليلة ضيفا عند سكان مقابر القرية . عند اهل بلده الاصليين . مع الناس الكبار اصل الذين زرعوا في حارتها وشوارعها الاف الاولاد وتركوهم ينبتون مثل الارز .. ومد عبد العال بصره ليشاهد على مقربة منه مقبرة الحاج احمد ببنايتها العالية وبجوارها مقبرة الحاج علوان .. الناس الكبار يظلون كبارا حتى في مماتهم ولا يفرقهم الموت ... كان هو طفلا يوم ان كان هؤلاء الرجال لهم في البلد شان .. وراح عبد العال يجهد في ان يتذكر ملامح الحاج احمد .. ولكنه لم يكن يبذل ادنى جهد في تذكر المناسبات التي كان يرتفع فيها صوته في القرية حين تحدث في القرية مصيبة او حادثة جاموسة تموت .. او دار تحترق .. او زراعة تهلك .. وكان الحاج يطوف بالقرية وبصحبته الحاج علوان يدخلون البيوت ويخرجون محملين بما يستطيع كل بيت ان يدفع .

وهكذا لم تكن المصائب في تلك الايام تستطيع ان تنفرد بواحد في القرية ..

كانت القرية كلها تقف في وجه الدهر عندمايريد يميل على احد اما في هذه الايام فلم يدر عبد العال ماذا جرى في الدنيا لقد مات هؤلاء الرجال الكبار واحدا وراء الاخر . وترك كل واحد منهم عددا كبيرا من الاولاد وتزوج اولادهم واخلفوا اولادا . وانقسمت الدور الكبيرة الى حجرات سرعان ماضاقت بسكانها . فزحفت دور القرية ونجاوزت الترعة الغربية وتخطت الطريق الزراعي واقتربت من ناحية بحري جهة المقابر ...

كانت المسافه بعيدة جدا بين القرية والمقابر اما الان فهو يبصر اضواء المصابيح الصغيرة تلمع في نوافذ البيوت التي توجد ناحية المقابر ..

زادت البيوت وزاد الناس ولم يعد في البلد ناس كبار مثل زمان ، فالاراضي التي يملكها أمثال الحاج احمد تقسمت بين اولاده واصبح نصيب كل واحد لايكاد يكفيه . وأصبح كل واحد مشغولا بنفسه وبأولاده ...

يموت رجل في القرية او تحدث مصيبة لاحد فيشغل الناس بالحديث عنها ساعات ثم تشغل كل واحد مشاغله . لم يعد هناك مآتم تبقى ليالي يخرج فيها كل بيت طعاما للمعزين من البلاد الاخرى ويأكل فيها الناس . ويمر المولد النبوي ومولد سيدي حازم فلا تقام خيمة ولا تذبح حتى دجاجة ...

المسألة كلها انه لم يعد هناك رجال مثل الحاج احمد ترتفع اصواتهم في القرية بين الحين والحين ، اصبح الدهر ينفرد بكل رجل في القرية فلا يحس به احد ..

« الله يرحم الناس بتوع زمان » خاطب عبد العال نفسه بهذه العبارة بصوت مسموع وهو يدفن عقب سيجارته في الارض وعيناه تطوفان بشواهد القبور التي تظهر خلال الظلام كأشباح ساكنة وخلال هذه الشواهد كان يخيل اليه ان وجه الحاج احمد بلحيته المستديرة وبشرته البيضاء مثل اللبن وعينيه الصافيتين كان يخيل اليه ان هذا الوجه يطل بين الشواهد ليرتفع صوته بهذه الكلمات « يا بلد لازم نعمل كذا وكذا » كان دائما يقول كلمة « يا بلد » كانت البلدة في تلك الايام شخصا واحدا يخاطبه الحاج احمد فيسمع ويطيع . اما الان فمن يسمع ؟

لو كان الرجال امثال الحاج احمد لا يزالون يعيشون لما مرت به وبالقرية هذه الايام السوداء ، فالبركة ماتت منذ مات هؤلاء الناس . لم تعد هناك بركة في شيء . لا في الزرع . ولا في الفلوس ولا في حاجة ابدا . كل الناس يشكون او على الاقل يتظاهرون بالشكوى . فصاحب الارض لا يكف عن الشكوى عن المصاريف على الاولاد في التعليم وفي غيره . والمزارع لا يكف عن الشكوى من المصاريف على الارض .. والاجير مثل عبد العال ... اصبح من الضروري ان يقوم بعمل آخر فالعمل الموسمي في الحقول لا يكاد يكفيه لانه لا يستمر طول العام ... ولهذا اضاف عبد العال الى عمله كفلاح يعمل بيديه اعمالا عديدة تعتمد على المصاريف . فهو احيانا يملأ حوض المياه الذي تشرب منه البهائم في مدخل القرية واحيانا ينادي في القرية بحثا عن وزة ضائعة وآخر المطاف انتهى به الامر الى ان يحرس المقابر من اللصوص ... .وفي الحقيقة ان هذه المهمة جديدة على القرية ... فقبل ان تظهر حكاية سرقة الاكفان لم يكن لهذه المهمة وجود . وسرقة الاكفان هذه احدى بدائع هذه الايام . وفي ليلة وفاة الشيخ عوض تقدم ابنه رضوان من

عبد العال وهمس في أذنيه ...

« يا عبد العال ... انت راجل طيب وتستاهل المساعدة ... أنا عاوزك تبات عند تربة ابويه اليومين دول » .

في البداية تردد عبد العال فالمهمة غريبة نوعا ما ... وان يقضي انسان عدة ليال بين المقابر امر يوجب التردد ... ولكن تردده لم يدم. فقد كانت حاجته الى فلوس اقوى من ان تسمح له بتردد طويل .... كان في انتظار عمل من أي نوع كان فلماذا يتردد ..؟

كان الشتاء قد حل وبريد بأي شكل ان يدبر أمر الكسوة لاولاده ولنفسه ... والفلوس التي تأتي اليه تنسرب من بين يديه كالماء ولا شك ان اجر المبيت عند المقبرة قد يكون مرتفعا قليلا فهو عمل جديد ليس له أجر محدود وسوف يكون العشاء وتكاليف السهرة على اهل الميت بطبيعة الحال ...

وقال عبد العال لرشوان « على عيني وراسي يا سي رشوان »

ولم يكد يقبل المساء حتى قدم الى المقابر واتخذ مكانه امام مقبرة الشيخ عوض . كان هو الاخر رجلا طيبا من ناس زمان ... وجلس في انتظار قدوم ابنتيه فتحية وامينة ومعهما كومة من القش من دار الميت لينام فيها وبالطبع سوف يحضران العشاء والشاي ... وسوف يتعشى ثلاثتهم قبل ان تعود البنات الى القرية كان يشعر في البداية انه سيقضي ليلة مع اهل بلده الحقيقيين ، مع الناس الكبار . وكان ذلك يؤنسه نوعا ما ... ويمنحه موضوعا يفكر فيه ... كان يشعر بهؤلاء الناس حوله ويتذكر وجوههم وكلماتهم و ... لكنه لم يلبث ان احس بصمت بارد يرين على المكان . واختفت جميع الاصوات والوجوه . ابتلعتها اصوات الرياح والظلام الكثيف الذي بدأ يتجمع بتجمع السحب في السماء واحس انه وحيد فاشعل سيجارته وتلفت حواليه في انتظار قدوم ابنتيه.

كانت رياح ديسمبر تهز الاشجار بعنف . وعبد العال يتداخل في نفسه ويزداد التصاقا بالمقبرة . وعيناه ترقبان الطريق الضيق القادم من القرية في انتظار قدوم ابنتيه ومعهما القش والعشاء ...

كان يخشى ان تمطر السماء فتعوق قدوم البنتين . وكانت ملامح الطريق توشك ان تختفي امام عينيه بعد ان تعبات السماء بالغيوم . وكانت المصابيح القليلة التي كانت تلمع من نوافذ البيوت القريبة قد اخذت تنطفىء هي الاخرى واحدا وراء الاخر . وشعر عبد العال مرة اخرى بالخوف يتسلل الى نفسه . لو ان ابنتيه هنا لما شعر بالخوف ومع ان كبراهما لا يزيد عمرها عن عشرة اعوام فقد تمنى لو لم يتاخر اكثر من ذلك وفكر في تلك اللحظة ان يسبقيهما معه طوال الليل يتحدثون معا . وحتى اذا اخذهما النعاس فلا بأس فوجودهما ثالثين افضل من وجوده وحده . ومن الممكن ان تستيقظ واحدة منهما فجاة وتظل تتحدث معه طوال الليل ... وتنبه عبد العال الى قطرات من المطر على جبينه وعلى كتفيه في لحظة واحدة فقد كان ثوبه لا يمنع المطر تماما فوق منكبيه ... لقد حدث ما يخشاه . وندت عنه تلك العبارة « يا ساتر » سوف يتبلل القش وسوف تتبلل البنتان اذا كانتا في الطريق ... ومع انه لم يكن يعاملهما برقة دائما فقد شعر في تلك اللحظة بالذات حيالهما بنوع من العطف لم يتبين مبعثه !

كانت القطرات تتابع ثقيلة ويسمع وقعها على المقابر الحجرية فتحدث صوتا رتيبا . والعجيب انه انس الى هذا الصوت المتتابع . لقد ازال وحشة الصمت المطبق . وفكر ان ينتقل الى جوار مقبرة الحاج احمد المقابلة فبنائها المصنوعة على شكل حجرة دائرية سوف تحميه من المطر ... كان الحاج احمد كريما في حياته وايضا في موته . ولم يكد يدرك مكانه حتى تناهى الى سمعه صوت يألفه تماما ...

ـ أبـه .. أبا عبد العـال ...

كان الظلام كثيفا الى الحد الذي جعل عبد العال لا يكتشف قدوم ابنتيه الا بعد سماع صوت أمينه المرتجف وتقدم نحوهما مهنديا بالصوت واقتادهما كل واحده من يد الى جوار المقبرة .. وأنزل كومه القش من فوق راس أمينه ... اما فتحية الصغرى فكانت تحمل في يدها صرة العشاء ... فحملها مع الصرة وأجلسها فوق الكومة ...

ـ النسا لحقكم فين يا ولاد ؟

سأل عبد العال ابنتيه ـ بنبرة فيها حنان لم تألفاه ... فاجابت أمينه ـ النسا ، لحقنا هنا قريب خالص .. لكن بل القش ومش حمرف نولعه ـ معلهش ... دلوقت النسا يبطل والهواء ينشف القش..

وجلس عبد العال وضم ابنتيه الى جواره وكانت أصابعه تلمس جسد ابنتيه في أكثر من موضع ممزق من ثوبيها ... وبلا شعور كان يديم وضع يديه فوق أماكن التمزق محاولا عبثا ان يمدها بأصابعه ...

كان الجو باردا تماما ... ولم تنبس فتحية (البنت الصغيرة) بكلمة واحدة كانت ترتجف تحت يد والدها كدجاجة مذعورة ...!

وعادت مشكلة الكسوة تبرز في ذهن عبد العال بصورة مزعجة ... المشكلة كلها أن الكسوة تحتاج على الاقل لجنيهين تحتاجهما معا ... والجنيهات لا تدخل جيب عبد العال الا على شكل قروش وبرايز ... لم يعمل في حياته عملا يستحق جنيها كاملا ... ولن يكون بمقدوره ان يجعل القروش البرايز تتحول الى جنيهات ... الا اذا قدر على ان يبقى هو واولاده عدة ايام بدون طعام واستند عبد العال بظهره الى باب المقبرة كان الباب محكم الاغلاق تماما وفكر لو أمكنه فتح باب هذه المقبرة لقضى الليلة هو واولاده بشكل افضل ... وعالج الباب قليلا ولكنه كان محكم الاغلاق ... لا فائدة . وفي هذه اللحظة تصور « عبد العال » ان جميع الموتى في هذه المقبرة لا يهمهم ان تظل السماء تمطر طوال الليل ... ولا يدري ما الذي جعله يتصور الشيخ عوض بالذات ممددا في مقبرته ملتفا بأكفانه المصنوعة من القطن والحرير والشاهي وان هذه الاكفان لا تزال جافة تماما منذ بدأت السماء تمطر ... وستبقى كذلك فالبلل لن يصل اليها أبدا مهما ظلت السماء تمطر ..

ـ « آبه ياالله نولع ... انا سقعانة » ..!

ارتفع صوت فتحية بهذه الكلمات . وفكر عبد العال بسرعة انه من الممكن ان يكون القش داخل الكومة جافا نوعا ما ... فاخرج حزمة من داخل الكومة ، وبحذر اشعل عودا من الثقاب بجوار المقبرة تماما حتى لا تصل اليه قطرات المطر ... كان المطر قد خف قليلا وبقي بعض الرذاذ يحمله الهواء هنا أو هناك ... ثم لم يلبث المطر ان انقطع . واضاء المكان بلهب مرتفع يتخلله دخان نتيجة لتبلل القش ... وفي ضوء هذا اللهب ظهرت وجوه ثلاثة ... وجه امينه النحيل تعبر ملامحه عن مزيج من الخوف والبهجة ... كانت خائفة لانها في المقابر التي تسمع عنها الكثير من الحكايات الغريبة ... وكانت مبتهجة لانها تقضي ليلة بطريقة غير عادية فهي مع أبيها خارج البيت وسوف يتعشيان معا طعاما لم تعرفه بعد من منزل الشيخ عوض ..! اما فتحية الصغرى فكان وجهها اكثر ملاحة ونضرة رغم ذلك الشحوب الذي يغشاه ... وعيناها تطل منهما نظرات متسائلة سرعان ما افصحت عنها بعد ان انست الى ضوء النار الذي ازال وحشتها ومس جسدها المرتجف بلمسات من الدفء

اعادت الدماء الى عروقه ...

ـ آبه ... احنا لما نموت حيجبونا هنا ..؟

فوجيء عبد العال بسؤال ابنته . كان في ذلك الوقت يفك صرة العشاء ليأكل هو ... وابنتاه وكان كذلك يريد ان يدفيء العشاء قليلا فيقرب الاناء النحاس المملوء من اللهب المشتعل ووجد نفسه يجيب ابنته دون تفكير .

ـ يا بنتي ربنا يخليكي .. انت لسه صغيرة ..

كان وجهه وهو يجيب ابنته يبدو هو الاخر في ضوء اللهب اكثر طيبة وبساطة مما كان يبدو خلال الظلام ! وعادت فتحية تسأل :

ـ هو يابه اللي بيموت بيروح الجنة ..؟

ـ ايوه ..!

ـ وياكل خوخ ورمان ... ويلبس حرير ..؟

ـ ايوه . (كان عبد العال يجيب وهو منهمك في مد النار بمزيد من القش الجاف حتى لا تنطفيء)

ـ واحنا حناكل كده لما نموت ؟

وعاد عبد العال يجيب بضيق هذه المرة :

ـ ايوه بس يا بنتي انت فين والموت فين ؟ اسكتي ..!

وقبل ان يكمل ابوها اجابته كانت تسأل :

ـ امال بيعيطوا على اللي بيموت ليه ؟

وهنا ولاول مرة تدخلت امينه لتجيب اختها قائلة وهي تضحك :

ـ انت عبيطة يا بنت...امال ايه...مش لازم الناس تعيط على الميت

واجاب عبد العال وهو يرمق ابنتيه بنظرة غريبة وفي صوته نبرة تأثر:

ـ يا بنتي بيعيطوا على الميت لانهم ما عدوش حيشفوه تاني ..!

وعادت فتحية تسأل ... وعيناها تحملقان في اللهب وتحاول ان تقترب منه :

ـ الميتين دلوقت سقعانين يابه زينا كده ؟

ـ لا يا بنتي ... دول ما بيحسوش بالسقعة ولا بحاجة خالص .

ـ امال ليه بيلفوا الميت في هدوم كتير . مش علشان ما يسقعش .؟

وصمت عبد العال قليلا وهو يحدق في وجه ابنته الذي بدأ يختفي مرة اخرى في الظلام بعد ان اوشكت نيران القش ان تخمد ثم قال محولا مجرى الحديث :

ـ ياالله بقى ... الاكل سخن خلاص ...

وقرب الاناء النحاس من البنتين وتلاقت الايدي داخل الاناء ...تغمس فيه لقيمات العيش الجاف وترتفع بها في سرعة ... وتقدمت الصغيرة قليلا لتتمكن من الطعام ... واستمرت تاكل كانها قد نسيت سؤالها تماما .. !

كان المطر قد كف عن ان ينهمر . وعاد الصمت يخيم على المكان ... واثناء الطعام لم يتبادلا اية كلمة ولو صغيرة ... وانتهى الاب قبلهم من العشاء واشعل سيجارته الجديدة من علبة الدخان التي اعطاه اياها رشوان وهو في طريقه الى المقبرة وعلى ضوئها ابصر وجه ابنتيه وقد لوث الطعام جزءا منه ... كانتا لا تزالان تاكلان ... وبعد ان انتهتا من طعامهما قالت امينه ...

ـ ياالله نولع علشان نعمل لك الشاي يابه ..

ولكن عبد العال الذي كان يجذب انفاس سيجارته بعصبية طارئة قال فجاة لابنتيه :

ـ قومي يا امينه خدي اختك وروحي ...

ثم قال بعد فترة صمت : « يمكن الدنيا تمطر تاني » .

ـ خلينا معاك ..! قالتها البنتان معا في لحظة واحدة ..

ولكن عبد العال عاد يتكلم بلهجة اكثر حدة

ـ لا ... انت لازم تروحي انت وهي . الدنيا برد ..!

واحست البنتان بأن لهجة أبيهما قد تغيرت وداخلهما ذلك الخوف الذي تشعران به حين يغضب وظنتا انه نسي وعده لهما بأن يبيتا معه ... كما ينسى اشياء كثيرة ، فقامتا تتحسسان طريقهما . وقام هو ليسير معهما حتى يقتربا من القرية ... وحملت امينة الاناء النحاس بما تبقى فيه من الحساء فوق راسها ومشت تسنده بيدها ... وقال ابوها وهو يسير الى جوارها وفي يده فتحية :

روحي على دارنا الاول وخلي امك واخوك يتعشوا وبعدين ودي الحلة دار الشيخ عوض . فاهمة ..!!

وعاد عبد العال وحده هذه المرة بعد ان وقف قليلا يرقب ابنتيه تدخلان شوارع القرية ... كان يشعر بخوف غريب هذه المرة ... وهو يقطع الى المقابر .. كان قد الف المكان ولم يتغير فيه شيء عن ذي قبل: نفس الاشجار ونفس الشواهد المرتفعة ونفس الاصوات التي تنبعث في ليل اية قرية ... اصوات الطيور والحشرات كل شيء كما هو .

ومع ذلك فقد كان هذا الخوف الغريب يملأ نفسه . كان عبد العال يدرك في وضوح هذا الخوف انه خوف من نفسه ، من تلك الفكرة التي برزت في نفسه بشكل غريب كان يحاول عبثا ان يطردها من ذهنه انه لا يمكن ان يوافق على فكرة كهذه ، ولكن لماذا ترك ابنتيه تعودان الى البيت وقد كان ينتظر قدومهما بفارغ الصبر ؟ وازداد رعبا وهو يقترب من مكانه الاول : كان يخيل اليه انه سيجد الحاج احمد واقفا امام

صدر حديثا

قرارة الموجة

شعر نازك الملائكة

وحدي مع الايام

شعر ـ فدوى طوقان

وجدتها

شعر ـ فدوى طوقان

الحب والنفس

قصص ـ عبد السلام العجيلي

العودة من النبع الحالم

شعر ـ سلمى الخضراء الجيوسي

منشورات دار الاداب ـ بيروت

باب مقبرته بوجهه ولحيته ونظراته التي تنطق بمثل هذه الكلمات : « .. كده يا عبد العال ابوك كان راجل طيب » . كان لوالده مقبرة هنا لم يعد بمقدوره ان يتعرف عليها لطول العهد ولانها كانت لا ترتفع كثيرا عن الارض . كان ابوه حقا رجلا طيبا ودرويشا ، ولكنه كان فقيرا . كان عبد العال يعتقد ان قدرة الموتى لا حد لها وانهم يعرفون كل ما يخطر ببال الاحياء ، ولكن لماذا كل هذا الخوف ؟ ماذا فعل ؟ انه لم يفعل شيئا بعد ، ولا يمكن ان يفعل شيئا كهذا ، هل هو مسؤول عن كل ما يخطر ببـــاله ؟

وتقدم في خطوات وجلة الى باب مقبرة الحاج احمد . كان البـاب مغلقا كما هو وتلمس مقبض الباب واحس الصدأ يعلو كل قطعة فيـــه والصمت يسود المقبرة ويسود المكان حوله عدا تلك الاصوات الليـلية الرتيبة التي أمست جزءا من هذا الصمت لا تعكره ولا تشوبه .

وجلس وهو يشعر بنوع من الهدوء يتسلل الى نفسه . لا ينبغي ان يترك نفسه لمخاوف لا وجود لها . لقد سمع الواعظ يقول يوما ان الله لا يحاسب الناس على ما يخطر ببالهم فليجلس وليصنع شايا ، وليفكر كما يحلو له فالله لا يحاسب الناس على تفكيرهم . مرة اخرى اشعل النار في القش وجلس يصنع الشاي ومرة اخرى عادت السماء ترسل رذاذا خفيفا كان يصيب وجهه احيانا ، وعاد يتصور الشيخ عوض ملتفا فـــي أكفانه العديدة الجافة التي لن يصيبها الرذاذ ابدا . وفكر انها ستظل جافة الى ان تبلى ، الى ان تتحول الى تراب ويتحول الشيخ عوض نفسه الى تراب . كان هو واقفا عصر الامس في الدكان حين قدم رشوان ابن الشيخ عوض ليقطع الكفن لابيه. لقد قطع ثلاثة اكفان واحدا من الدبلان وواحدا من الحرير وواحدا من الشاهي ، كل كفن خمسة امتار ، ونقد صاحب الدكان خمسة جنيهات ورقة واحدة دفعها في لحظة ، خمسة جنيهات من المستحيل ان يحصل عليها هو دفعة واحدة حتى ولو شنق نفسه ، خمسة جنيهات تحل مشكلة الكسوة لعدة سنوات !..

... وتعجب ان الناس الذين يملكون اوراقا كثيرة من فئة الخمسة جنيهات يسيرون في الطرقات كما يسير غيرهم دون ان يبدو عليهم شيء وتضايق هذه المرة من تفكيره هذا لماذا يسترسل في هذه الافكار ؟وتذكر ان الشيطان يسكن المقابر كما سمع من بعض الناس .. ربما كان هـو الشيطان الذي يوسوس له بهذه الافكار ..!

« أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » . قالها بعصبية وتذكر كلمـات رشوان « يا عبد العال انت رجل طيب وتستاهل الخدمة وعلشان كـدة عاوزك تبات عند تربة ابويه اليومين دول » .

« أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » كررها هذه المرة بصوت مرتفـع وخيل اليه أنه يسمع صوت ابنته أمينة تنادي « آبه ... ابا عبد العال» وخاف ... خاف من الصوت الذي يشبه تماما صوت ابنته كان الصوت يزداد وضوحا وعبد العال يزداد خوفا ... ولم يسترد عبد العال نفسه الا بعد ان أبصر ابنته أمينة تقترب منه ... وفي يدها اختها الصغرى فتحية ... لقد أصرت على ان تعود معها ... وقالت أمينة .

ـ احنا نسينا الجلابية اللي كان العشا جاي فيها بتاعة دار الميت ... وامي قالت لنا هاتوها لحسن تضيع ..!

وكاد ان يستبقي ابنتيه هذه المرة ليبيتا معه . ولكنه خجل من نفسه ماذا تظن البنتان ؟؟ ربما ظنتا انه خائف ؟ وبلع الفكرة . وبحث معهما عن الجلابية التي استعملاها كمرة يلف فيها العشاء ... ومشى يوصل ابنتيه مرة اخرى الى مقربة من القرية وفي الطريق كانت عيناه تكادان تلمحان كل ما في ثوبيهما من خروق وكانت اذناه لا تلتقطان من اصوات الليل سوى صوت جسديهما المرتعشين ..

وحين عاد الى المقابر لم يشأ ان يظل جالسا في مكانه الاول تستبد به الافكار الشيطانية ولكنه لم يكد يسير بضع خطوات حتى طرأ علـــى ذهنه خاطر غريب . أخذ يعد المقابر . وتصور ان كل قبر يضم عشرات الموتى فالميت بعد وقت ليس طويلا جدا يخلى مكانه فيصبح بمـــقدور الناس ان يضعوا الى جواره ميتا آخر في نفس المقبرة وربما كان هـذا هو السبب في أن القرية قد زادت جدا بينما لا تزال المقابر في حجمها القديم لم تزد كثيرا وراح يتصور ان كل ميت قد قدم الى هذه المقابر كان ملفوفا في ثلاثة اكفان حتى افقر الناس لا يبخلون عليه بالاكفان الثلاثة من اي نوع واخذ يتخيل آلاف الامتار من القماش وقد بليت تحت هذا التراب اللعين وبلي اصحابها ..! لماذا يصرون على أن يكفن الميت فـي ثلاثة اكفان ما دامت الاثواب تبلى ويبلى اصحابها وتصور ان شريطـــا عريضا من القماش ينبعث من هذه المقابر يشده رجلان وان هذا الشريط يمكن ان يغطي القرية كلها ويصنع فوقها خيمة كبيرة لا يخترقها المطر .

كان عبد العال لا يزال يسير بين المقابر وفجأة توقف عن المسير كان قد سمع صوتا غريبا على مقربة منه وحدق في الظلام وهو يتجه في حذر نحو مصدر الصوت . كان هناك حيوان في حجم الكلب يعمل يديه في مدخل مقبرة سرعان ما أدرك انها مقبرة الشيخ عوض نفسه .

وفكر عبد العال سريعا وهو يقاوم رعبا مفاجئا هز ركبتيه واشتـدت قبضة يده على العصا التي يحملها معه . وتراجع قليلا الى الـــوراء وجلس مختبئا خلف شاهد مقبرة قريبة . وتحسست يداه بعض الاحجار المبعثرة حوله . لقد فضل الا يشتبك مع الحيوان مباشرة وقذفه مـن مكانه بمجموعتين من الاحجار سرعان ما أفزعته دون ان يجد في مواجهته خصما واضحا يهاجمه . وفكر عبد العال ان يتخلص من معاودة الاشتباك مع هذا العدو الذي لا يعرف مدى قوته فاشعل النار في بعض ما تبقى لديه من القش فالحيوانات تهرب من منظر النار وفي ضوء النار المشتعلة أبصر عبد العال الاثار التي احدثها الذئب في مدخل المقبرة . لو انـه تأخر قليلا لتمكن الذئب من مهاجمة المقبرة والفتك بجثة الشيخ عوض وبالتالي بالاكفان الثلاثة الغالية الثمن .

وفكر عبد العال وهو جالس ان ذئابا كثيرة تقوم بنفس المهمة بالنسبة لجميع الموتى وان الاكفان كلها تتمزق في نهاية الامر على يدي الذئاب بل ان هذا الذئب نفسه سوف يعاود الهجوم بعد ان تنتهي ليالي حراسته.

وعادت الفكرة اللعينة تملأ رأسه . ما دامت هذه الاكفان تبلى او تتمزق في نهاية الامر لماذا لا يكتفون بثوب واحد للميت ؟ لماذا هـــذه الاثواب الثلاثة ؟ لو ان في البلدة رجلا عاقلا مثل الحاج احمد لوقف وقال بأعلى صوته « يا بلد لازم نكفن الميت في كفن واحد وبقية قماش الكفن نفرقه على الناس الغلابة » .

ولكن الحاج احمد مات ولم تنجب القرية رجلا مثله بعد .

وشعر عبد العال بأن ما يفعله نوع من العبث . ان يظل في هذا البرد يحرس جثة لثلاث ليال وفي الليلة الرابعة يأتي لص من غير البشر لينهي كل شـيء ؟

وتخيل وهو جالس مكانه لا يزال . ورعدة خفيفة تتمشى في كل جسده تخيل واحدا من هؤلاء الذين يسرقون اكفان الموتى ... تخيله وهو يحاول ان يتلمس طريقه داخل المقبرة .. والظلام هناك اشد مائة مرة مما هو في الخارج ... ويداه تحاولان ان تفكا الاربطة ... ترى ماذا يمكن ان

يفاجئه وهو في ذلك المكان الغريب المظلم ... الملائكة تزور الميت في اول ليلة ، الموتى السابقون يسألونه عن اهل الدنيا !! من المؤكدان اشياء رهيبة يمكن ان تقع في لحظة كهذه ... ومع ذلك فقد صدمته حقيقة كان يشعر بها في صمت . وهي ان هؤلاء اللصوص يسرقون الموتى فعلا رغم تلك الاشياء الرهيبة . وانه هنا الليلة لهذا السبب . لا شك ان اي ذئب احسن حالا منه لانه لا يفكر في كل هذه الاشياء وهو يهاجم الموتى وازداد توتره ... فقرر ان يعاود السير ولكنه هذه المرة لم يبتعد عن المقبرة ... كان يدور حولها واحس ان ركبتيه ترتعشان لم يدر اذا كان ذلك من البرد ام من الخوف ؟ كان يريد ان يتخلص من هذه الافكار التي بدأت تعذبه فعلا ... ان سرقة الاحياء اسهل جدا من سرقة الموتى . ومع ذلك فهو لم يسرق في حياته اي شيء !! فكيف يمتلىء رأسه بهذه الخواطر اللعينة ؟ وفكر في ان يعاود اشعال النار ...وحين ارتفع لهيبها هذه المرة وقعت عيناه بالرغم منه على مدخل المقبرة ولاحظ جيدا الاثار التي احدثها الذئب . ولذلك بدأ يفكر ان عليه ان يعيد ترميم المكان الذي هدمه الذئب اذ ماذا يقول لاهل الميت لو رأوا هذا الاثر في الصباح ؟ واقترب من مدخل المقبرة وراح يتلمس بيديه الجزء الباقي من السد فاذا به ينهار فجأة تحت يده . وغمره رعب ساحق وهو يشاهد المدخل المظلم ينفتح امام عينيه دون ان يبصر شيئا داخله وأحس كأن مدخل القبر فم حيوان غريب يوشك ان يبتلعه . وكادت تفلت من فمه صرخة هائلة . وتطلع حواليه فجأة فاحس كأن شواهد القبور تمتد نحوه في سرعة فائقة . وتصلبت بداه على مدخل المقبرة وسمع اصواتا غريبة غامضة تنبعث من كل شبر حوله .. ومرت لحظات لا يدركها كان خلالها يحاول ان يعي هذه الاصوات الغريبة الغامضة ... وبدأت الاصوات تختفي من كل مكان حوله . ولم يعد يسمع سوى دقات قلبه تلهث في صدره . وعادت شواهد القبور تقصر شيئا فشيئا ... وبدأ ظلام المقبرة الدامس يشف عن جسم ابيض ممدد في ركن من المقبرة المظلمة ... كان الجسم يبدو ساكنا ككل شيء حوله ومرت لحظات كان عبد العال يتوقع خلالها ان يحدث شيء غريب ، ان يتحرك الجسم الراقد فجأة . وكان هو نفسه خلال هذه اللحظات عاجزا عن الحركة . ولكن الجسم ظل ساكنا كما هو . كان الظلام يغشى بقية جوانب المقبرة . وكانت هذه الجوانب هي ما يخاف عبد العال ان يتطلع اليه . كان يحس في كل جانب مجهولا لايدرك كنهه في انتظار ان يتطلع اليه لتلتقي عيناه بعينيه . وبلا شعور وجد عبد العال يده تمتد الى جيبه لتخرج علبة الثقاب واشعل عودا منها . بدت في ضوئه هذه الجوانب المخيفة كما أبصرها هو بنفسه عصر الامس حين اشترك في دفن الشيخ عوض . فراغ تتناثر فيه بعض العظام .

وفجأة هبت ريح باردة أطفأت عود الثقاب وساد الظلام مرة اخرى وعاد الرعب يستولي على قلب عبد العال فقد عادت الاصوات تنبعث هذه المرة حقيقة عن كل شبر من الارض . كانت أصواتا قوية واضحة ورتيبة . وذهل عبد العال عن نفسه لحظات احس بعدها وقع قطرات حادة من المطر تلسع وجهه وكتفيه . وأدرك ان المطر هو مصدر الاصوات القوية الواضحة . ووجد نفسه يندفع داخل المقبرة ليحتمي بها من المطر . وفي هذه اللحظة احس بهدوء بارد يتسلل الى اعصابه هدوء مشوب بغيظ وحنق على كل شيء . على المطر وعلى نفسه وعلى الموتى وعلى الاحياء ماذا جرى له ؟

واشعل عودا اخر من الثقاب حرص على الا ينطفىء . وفي ضوئه أبصر المقبرة خالية تماما الا منه . وأبصر الجثة هادئة مستسلمة لا حراك فيها . بل عاجزة تماما عن اية حركة ، هو وحده الذي يمكن ان يصنع اي شيء . لا احد هنا سواه فلماذا يخاف ؟

انه هو وحده الشخص الحي في هذه القرية من الموتى ؟ الشخص الذي يحتاج حقا لهذه الاثواب التي لن تبعث الدفء في جسد ميت . حسبه ثوب واحد . وتصور ابنتيه ترقدان الان على حصيرة ترتجفان من البرد وتلمس الكفن بيديه . كان جافا ناعما . واصطدمت يده بكوع الجثة فتحركت الجثة قليلا فارتجف للحظة ... وعاوده ذلك الهدوء البارد وذلك السخط على كل شيء . لو ان الحاج احمد حي لوافقه على فكرته ... فكرة ان يبقى للميت كفن واحد ... انه لا يفعل شيئا حراما .سيغفر له الله ان فتح المقبرة ... كان ذلك بدون قصد .كان يريد سدها وسيفعل ذلك بعد خروجه . سوف يحكم اغلاقها . ولن يشعر احد بشيء . سوف يصبغ القماش وسوف يلبسه هو وابنتاه فالحي ابقى من الميت ..!

وامتدت يداه بسرعة تفكان الاربطة ... لقد انطفأ عود الثقاب ومع ذلك حدث كل شيء في غاية البساطة وبسهولة لم يكن يتصورها .وحين كانت يده تضغط احيانا على جزء من جسده . كان يود ان يقول له : « لا مؤاخذة يا شيخ عوض » ... لقد ترك الكفن الداخلي فلم يبصر وجه الحاج عوض . كان يخشى ان يبصر وجهه . وفي لحظات خاطفة كالبرق ... كان يتصور انه سيموت يوما كالشيخ عوض . وسيكون مثله عاجزا عن اي شيء . ولمح في ذهنه المضطرب في تلك اللحظات انه وهو حي افضل من اي ميت مهما كان غنيا كالشيخ عوض ، وفي تلك

شعر

من منشورات دار الاداب

الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
قصائد عربية	سليمان العيسى
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي
عائدون	يوسف الخطيب

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

اللحظة كره الموت ، كرهه بشدة ، وفي النهاية عاوده الاضطراب فلم يحسن ربط الجثة كما كانت . وخرج من المقبرة واحكم سدها واخفى الكفن في مكان أمين ليتصرف به بعد ان تنتهي ايام حراسته .

كان الناس في القرية يسمعون الضجة من بعيد ... فيترك كل شخص عمله ويسأل . وفي البداية لا يكاد يصدق ما يقال له فيعاود عمله ولكن الضجة تقترب والاصوات تتضح (عبد العال يا وش النملة من قال لك تعمل دي العملة) ويخرج الشخص تاركا عمله ولسرعته قد يصدم طفلا صغيرا يلعب في الطريق او يدوس دجاجة ترقد في الشمس او يخبط بكتفه عجوزا يتلمس طريقه حتى اذا بلغ رأس الشارع رمى ببصره فشاهد موكبا صاخبا يزحم جوانب الطريق ويتقدم في بطء فيجري نحو الموكب الذي يبدأ بمقدمة من الاطفال تختفي اصواتهم الصغيرة خلال الاصوات الخشنة التي تنبعث من قلب الموكب حيث يزدحم عشرات الشبان من مختلف الاعمار حول رجل لا يكاد يظهر حتى يختفي وفي اللحظات التي كان يظهر فيها الرجل خلال الاذرع الممتدة المتشابكة التي تتجاذبه كان الناس يعاودون النظر ليتأكدوا انه عبد العال فقد كانوا يبصرون وجها شاحبا كوجوه الموتى ونظرات بلهاء تختفي فيها معالم اي تعبير . وكان يلتف حول عنقه قماش كفن ناعم من الشاهي الفاخر وفي اللحظات التي كان ينحسر فيها قماش الكفن عن كتفيه كانت تبدو ثيابه وقد تمزقت تماما فلم تكن تقوى على كل هذا الجذب !

كان الموكب يتزايد بين لحظة واخرى وسطوح المنازل ونوافذ البيوت تمد الموكب بعشرات من الوجوه النسائية المتطلعة وبعشرات الاصوات الهامسة المستفسرة وبعشرات النظرات التي تختلف فيها معالم التعبير، ولكن الموكب ظل محافظا خلال نموه على نظامه التدريجي فقد كان يبدأ دائما بمقدمة ضئيلة مفككة من الاطفال التي تبدو في صخبها كانها منعزلة نوعا ما عن قلب الموكب ثم يتدرج في الارتفاع والتماسك حتى يصل الى ذروته حيث يلتف عشرات الشبان حول عبد العال ثم يتدرج مرة اخرى في الانخفاض والتفرق في مجموعات خلفية من الاطفال والنساء الذين لا يمكنهم متابعة الموكب ..!

كان الموكب يسير في بطء ويزداد تماسكا خلال سيره كسلحفاة جبلية سجينة في قالبها الصخري تحمله حيث سارت ولكنها ابدا لا يمكنها ان تتحرر منه ..!!

وكان الموكب يبصر طريقه بعشرات الاعين التي تنبعث منها نظرات تنم عن فرح خفي مستبد كما كان يعلن عن وجوده بهذه الكتل الصوتية التي تفصح خلال تدفقها عن رغبة غامضة في التشفي وكانت عشرات الاذرع التي لا تكف لحظة عن الحركة داخل الموكب والتي كانت تتجاذب في جنون اطراف الكفن تعلن عن هذه الحيوية الغريبة التي تتمتع بها هذه السلحفاة الجبلية هذه الحيوية التي كان يمدها كل شارع وكل حارة بفيض من الدماء الحارة ولم يكن الموكب يسمع لاصوات فرد مهما يكن ان تظهر فيه ولا لمشاعر بعض الشيوخ او النساء ان تظهر خلال مشاعره المتدفقة بفيض من السخط الهستيري المرح . كان يمضي في طريقه كحيوان غريب لا يعبأ بما حوله تقوده غرائزه الغامضة الى حيث لا يعرف احدا . حتى الذين يسيرون في داخله ! وكان هذا الحيوان ينشر حوله وفي كل مكان يمر به جاذبية غريبة تشد بعض الناس اليه وتدفعهم عنه بطريقة لا يستطيع احد ان يتكهن بها . وكما كانت اصوات الموكب تظهر خافتة لتجعل كل انسان يترك عمله ، فقد كانت تختفي مرة اخرى بالنسبة للشوارع التي يمر بها فيعاود كل انسان عمله .. واذ ذاك فقط تظهر همسات الناس في الطريق ...

قالت سيدة كانت لاتزال تتابع الموقف المختفي بعينين حزينتين الى جاراتها : ـ يا ختي والله صعب عليه دا حايموت بالحيا في ايديهم وهم كده زي الوحوش .

قالت اخرى ـ ما يصعبش عليكي غالي يا ختي بعني كان حد قال له يسرق الكفن دول ناس أمنوه لانه راجل طيب يقوم بعمل كده .

وعلقت ثالثة :

ـ والله ما تخافي الا من الطيبين دول : يما تحت السواهي دواهي !

وعادت الاولى تقول :

ـ هوه لو ما كانش طيب كان اتمسك اولاد الحرام اللي بيسرقوا كثير وكمنهم ملطمين بيعرفوا يخبوا سرقتهم انما ده كمنه راجل طيب مسكوه وهو رايح يودي الكفن للراجل يصبغه الراجل شك في القماش قال شاريه منين يا عبد العال بعيد عنك الراجل اتلخبط ما عرفش يرد كويس . قام شال الكفن عنده وبقت فضيحة !

وقالت سيدة اخرى كانت صامتة طول الوقت

ـ ياشيخة انتي وهية اسكتي دا غلبان يظهر جرى لعقله حاجة انتو عارفين لما الناس اتلمو عليه ومسكوه عمل ايه فضل يزعق ويقول يا بلد ياغجر يا بلد زي النمل ماتتلمش الا على المصايب كلكم جايين النهار ده تتفرجوا علي كنتم فين زمان ماحدش كان بييجي يبص في وشي ويقول ازاي حالك ايه يا اخواتي لم الحوش ده كله اللي عمره ما كان. بيتلم ولا يسأل عن حد ايه جمعكم دلوقت . وبعدين فضل يزعق ويعيط وهو يقول ـ يرضيك كده يا عم الحاج احمد يرضيك كده انت فين تحوش عني النمل ده الي جاي ياكلني بالحيا !

وعادت السيدة الاولى تقول :

ـ يا ختي ربنا يلطف بيه لازم صحيح جرى لعقله حاجة دا عمره راجل طيب عمره ما عمل حاجة وحشة والله ياختي بناته اللي صعبانين عليه دلوقت الناس طول عمرهم تفضل تعيرهم بالحكاية دي وهم ملهمش ذنب !

وفي هذه اللحظة قالت عجوز كانت صامتة طول الوقت :

ـ يا ولاد ياما بيجري وياما شفنا . حاجات زي دي كتير ياما حصلت. فضايح لناس لكن الناس بتنسى وبكرة الناس حتنسى الحكاية دي وبكرة ياما حاتحصل حكايات جديدة تنسى الناس الحكايات القديمة !

القاهرة

محمد ابو المعاطي ابو النجا

كتاب ان خطيران

عارنا في الجزئر : لجان بول سارتر

الجلادون لهنري اليغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الاداب